يعود هذا الأثر إلى مجموعة من العوامل؛ أبرزها الأسلوب غير التقليدي للدرس، هندام المكوّنين وأسلوب خطابهم وإدارتهم للحصص التكوينيّة لم يكن يوحي بالطابع الرسمي المكبّل. الورشات كانت تشاركيّة يسهم الطلبة في بناء شكلها ومحتواها وتحديد مكان وزمان انعقادها. لا يضطلع المؤطّر هنا سوى بدور المسيّر الذي يستثمر خبرته من أجل تسهيل عمل الطلبة. وهذا ما جعل الورشات تفاعليّة، إذْ لم تكن الحصص قائمة على التلقين أو على الحوارات العموديّة بين الأستاذ والطالب، ولم تختتم بامتحان تقييمي حتى خلال الأيام الأخيرة للتكوين، وهو ما خفّض إلى حدٍّ كبير من الضغط، ورفع إلى درجة أعلى من لحمة الفريق الذي بات، بعد بضعة أسابيع، يعمل بانسجام والتزام واندفاع من أجل إنجاز مشروع إنتاج الفيلم.

كان للفضاء أيضاً دوره في تعلّق الطلبة المشاركين بالمشروع، إذْ لم نقتصر على العمل داخل الفضاء الجامعي بقاعاته وجدرانه المغلقة. كانت الحصص التكوينيّة النظريّة تقوم على شكل حلقات نقاش حرّة وفي أماكن مختلفة داخل المعهد (قاعة المجلس العلمي، الساحة (بها حديقة صغيرة)، قاعات الدرس، المشرب...) وخارجه (حدائق عموميّة، في بيت أحد الطلبة، في إقامة الأستاذين المكوّنين، في المقاهي، في الفضاءات الثقافيّة...)، بالإضافة إلى لقاءات خارج إطار العمل كان الهدف منها تطوير العلاقات بين أفراد المجموعة (غداء مشترك في مطعم بسيدي بوسعيد (إحدى ضواحي تونس العاصمة)، سهرة في بيت صديق، زيارة متحف أو معلم تاريخي...). أمّا حصص التكوين التطبيقي، فقد شهدت تنقل أفراد المجموعة في مناطق عديدة داخل البلاد في رحلات جماعيّة من أجل معاينة الظواهر وتصوير المشاهد والحوارات (جومين، تطاوين، المروج، الكباريّة، المحمديّة، جبنيانة...). وقد توفرت للجميع فرصة التعامل مع الأدوات التقنيّة (الكاميرا والميكروفونات وآلة التصوير وبرامج المزج والتركيب السمعي البصري، ...إلخ).

مثلت هذه التنقلات الميدانيّة لبعضنا وأنا من بينهم، أوّل فرصة للقيام بعمل ميداني سوسيولوجي بكامل تعقيداته (إيجاد مكان مناسب للتصوير، التعامل مع الفضوليين خلال العمل الميداني، إيجاد العينات والتواصل معها من أجل ضمان لقائها وتفاعلها مع المجموعة والإدلاء بشهادتها أمام الكاميرا، البحث عن وسطاء والتواصل معهم من أجل تمكين الباحثين من ولوج فضاء ما، أو إيجاد أحد الأفراد لضمّه إلى العيّنة وتسجيل حوار معه، ...إلخ). كلّ هذا أثّر بشكل إيجابي وكبير في الطلبة الذين كانوا حتى ذلك الوقت متعوّدين على الأساليب الكلاسيكيّة في البحث العلمي والكتابة السوسيولوجيّة. وقد طالت النقاشات مدى قدرة هذا التيار الجديد في علم الاجتماع على إنتاج معارف سوسيولوجيّة موضوعيّة قادرة، مثل الدراسات الكلاسيكيّة المكتوبة، وعلى فهم الظواهر الاجتماعيّة وتفسيرها وتحليلها. وفي هذه النقطة المفصليّة، توزعت الآراء بين من يرى أنَّ السوسيولوجيا السمعيّة البصريّة لا تمكننا إلّا من تطوير أساليب جمع المعلومات وتخزينها، وبين من يرى أنَّها يمكن أن تكون أيضاً لغةَ كتابة جديدة تعاضد بمميزاتها الخاصّة الإنتاج السوسيولوجي الكلاسيكي المرقون.

لقد مثل تكوين هذه المجموعة حقّاً حدثاً فريداً في الحياة الدراسيّة للطلبة المشاركين، وكان له أثر كبير في تمثلي لمهنة الباحث السوسيولوجي